تاريخ تطور الفكر العربي

بالترجمة والنقل عن الثقافة اليونانية

(١)

للعقل الانساني منازع قد تسوق الى نواحٍ من التأمل بعيدة كل البعد عن المنزع الحقيقي الذي كان سبباً في تحريك الفكر نحو النظر في المعقولات : فاذا نظرت في الخلافات التي وقعت بين النصارى لدى أول عهدهم لما استطعت ان تدرك بادىء ذي بدء الى اي حد سوف يذهب خلافهم.

كان الخلاف على طبيعة المسيح عليه السلام ، مبدأ مناقشات تناولتها الشيع الكنسية في القرون الاولى . وكان لاختلاف المذاهب في تلك المسألة اكبر اثر في النظر في المعقولات ، وفي التأمل الفلسفي

اشتهرت انطاكية بانها من أولى مدن المسيحية التي قام زعماء الدين فيها باول حركة من تلك الحركات الفكرية التي كانت ذات أثر كبير في شيوع الفلسفة ، وفروع الفلسفة اليونانية خاصة. قام بالحركة في انطاكية معلمان يقال لاحدهما «ديودوروس» والآخر «تيودورس المصيصي» كانا شديدي الاعتقاد في كمال الناسوتية في المسيح عليه السلام

وكان اكبر المؤيدين لهذا المذهب راهب من رهبان انطاكية يقال له نسطوريوس انتقل الى القسطنطينية استقفاً لها في سنة ٤٢٨ ميلادية . وتبع تأييد نسطوريوس لهذه الفكرة مناقشات حادة ، حتى انتهى الامر بعقد مجلس ديني في مدينة « افسوس » سنة ٤٣١ م . فانتصر حزب الاسكندرية ، وهو الحزب القائل بما يضاد المذهب النسطوري ، واعتبر نسطوريوس واتباعه هراطقة

كان النساطرة على اعتقاد كامل في أن نظراءهم بعيدون عن حكم العقل والضروريات الطبيعية. لذلك سعوا بعد مضي عامين على حكم مجلس افسوس الى جمع شملهم ، وعلى الرغم من مطاردتهم والاستبداد بهم نزلوا مصر واتخذوها مقر آلهة تعاليمهم

قبيل ذلك اغلقت مدرسة نصيبين او بالاحرى انتقلت الى الرها . وفي سنة ٣٦٣ سلمت مدينة « نصيبين » الى الفرس تنفيذاً للمعاهدة التي عقبت الحرب التي اشعل نارها الامبراطور يوليانوس وكان اعضاء مدرستها متناثرين في الممالك المسيحية

اذ ذاك ، فعادوا الى التجمع في ارها وفتحوا مدرسة سنة ٣٧٣ م ، وبذلك أصبحت تلك المدينة ، ولو انها في ارض تابعة للامبراطورية البيزنطية ، مركزاً للكنيسة التي ينطق زعماؤها باللسان السرياني

اصبحت مدرسة ارها بعد ذلك موطناً لرجال من زعماء النساطرة الذين لم يقبلوا حكم مجلس افسوس. غير ان الامبراطور زينون اغلق تلك المدرسة سنة ٤٨٩ م بحجة ان صبغتها نسطورية متطرفة. فلم يجد اهلها من موئل سوى الهجرة الى البلاد الفارسية ، فهاجروا تحت رئاسة كبيرهم « بارسوما » سنة ٤٥٧ م

نجح بارسوما في اقناع فيروز ملك الفرس بأن النساطرة يوالون ابناء فارس ويعضون خاضعين لقوانينهم ، وظلوا على عهدهم هذا في كل الحروب التي وقعت من بعد ذلك . ثم اسس النساطرة مدرسة اخرى في نصيبين ، فاصبحت منارة تشع منها التعاليم النسطورية ، تلك التعاليم التي كونت وجهاً من اوجه المسيحية مصبوغاً بالصبغة الشرقية البحتة . ومن ثم انتشر النساطرة في جوف آسيا ، وبلاد العرب ، ينشرون التعاليم المسيحية . ولم يكونوا عاملين على نشر المسيحية فقط ، بل أرادوا ان ينشروا معها تعاليمهم الخاصة في طبيعة المسيح . فاخذوا يستعينون على بث افكارهم باقوال ومذاهب منتزعة من الفلسفة اليونانية . فاصبح كل مبشر نسطوري بالضرورة معلماً في الفلسفة اليونانية ، كما انه مبشر بالدين المسيحي

ترجم النساطرة كتب زعمائهم وعلى الاخص كتب تيودورس المصيصي الى السريانية ليستعينوا بها على بث افكارهم . ولكنهم لم يقتصروا على ذلك بل ترجموا كثيراً من كتب ارسطوطاليس والذين علقوا عليها ، لانهم وجدوا فيها اكبر نصير يشد عضدهم في فهم المسائل اللاهوتية الغويصة التي كانوا يبشرون بها بين امم لم تشم من ريح المدنية الا قدراً يجعل نشر مثل تلك التعاليم متعذراً ، ما لم يستعن عليها بمبادىء من الفلسفة ومباحث في التأمل

غير ان كثيراً من تلك التراجم قد صب في قالب لم يراع فيه نقل الفلسفة اليونانية لذاتها ، بل اتخذت التراجم ذريعة لبث مذهب ديني ، هو مذهب النساطرة ، والطعن في قياصرة الروم والكنيسة الرومانية ، فقلت الثقة بالنقل من هذه الوجهة وحدها ، حيث كانت الضرورة تقضي بان يختلط قليل من الفلسفة بكثير من تعاليم المذهب النسطوري او بالعكس ، للاستعانة بذلك على بث المذهب الديني ، وهو الغرض الرئيسي

تلك كانت النواة التي اشتهت بالفلسفة اليونانية ، وعلى الاخص بفلسفة ارسطوطاليس والافلاطونية الجديدة في جو آسيا خارج حدود الامبراطورية البيزنطية . وسوف نرى في سياق هذا البحث كيف ان جماعة من مترجمي النساطرة هم الذين كانوا أول من نقل تلك الفلسفة من السريانية الى اللغة العربية ، وبذلك انتشرت في العالم العربي كله

غير انك تجد رغم هذا ان في الحركة النسطورية أوجهاً من النقص شأن كل شيء يصدر عن الانسان . فان انبتات صلاتها بالعالم اليوناني خارج الامبراطورية البيزنطية، قد جعل حركتها التعليمية مصبوغة بصبغة الانحصار في بقعة محدودة من آسيا

أما «نسطوريوس» فانهُ ان كان قد اتُّهم امام الكنيسة وصدر حكم مجمع افسوس عليه ، فانهُ قد ترك الكنيسة امام مشاكلها العظمى ، التي ظلت تعمل في رؤوس الناس زماناً ، حتى انتهت المناقشات الشيعية بمجمع آخر عقد سنة ٤٤٨ م. بمدينة خلقيدونية كانت نتيجتهُ ان اخرجت فئة اخرى من الكنيسة الرئيسية هم فئة المعتقدين بالطبيعة الواحدة في المسيح

وفي اواسط القرن السادس قام يعقوب السروجي وانشأ شيعة اليعاقبة المنسوبة اليه فاضطهدتها امبراطورية بيزنطية . ولكن اعضاءها لم يخرجوا عن حدود الامبراطورية ، بل ظلوا داخلها كقسم مستقل بصورة خاصة من اصحاب الطبيعة الواحدة . وارسلوا طائفة منهم خارج الامبراطورية تبث تعاليمهم . على أن هؤلاء قد اتبعوا نفس الطريقة التي اتبعها النساطرة في ترك لغة نظرائهم في الدين ، فعمدوا الى استعمال اللغة القبطية واللغة السريانية . والحق أن عصر اللغة السريانية الذهبي لا يبدأ الاّ برجوع اليعاقبة عن استعمال اللغة اللاتينية الى اللغة السريانية

والظاهر لكل من درس علم اللغات أن هنالك فاصلاً حقيقيًّا بين اللغة السريانية كما استعملها اليعاقبة في الغرب ، والنساطرة في الشرق. فان اليعاقبة انتحلوا لهجات حديثة ، يغلب أن يكون السبب فيها راجعاً الى طبيعة استيطانهم وتوزعهم الجغرافي

اذا اعتبرنا النتائج التي حدثت من خروج النساطرة واليعاقبة ، استطعنا ان نفهم لماذا ترجمت أعمال الفلاسفة اليونان الى اللغة السريانية . بينا نجد أن الحركة النسطورية كانت السبب الاول في أن اللغة السريانية قد اصبحت بالتدريج الوسط الذي تركزت فيه آثار التثقيف اليوناني وانتشرت في آسيا خارج حدود الامبراطورية

العرب بقدمهم في مفاوز الوعرة ، وظلوا عليه عاكفين حتى آخر عصور مدنيتهم . ذلك لان نجم الاسكندرية في العلم قد اطفأ انوار السريانية. وأخص ما يأخذ بلب الناس في مثل تلك الحالات خداع الشهرة وبعد الصيت. لهذا اكب العرب تحت تأثير تلك العوامل على نواتج العقل في الاسكندرية دون ما تضمنت السريانية من مباحث العلم والفلسفة

في وسط تلك الصورة الذهنية نبتت مؤلفات بولس الاجانيطي الذي مر بنا ذكره. وقد ظلت مؤلفاته في الطب طوال العصر العربي والعصر اللاتيني في القرون الوسطى ، مادة التعاليم الطبية

كذلك كانت الاسكندرية منبتاً لعلم الكيمياء . ففيها تكونت النواة الاولى التي استمد العرب منها سواء أفي هذا العلم ، أم فيما تفرع منهُ من الفنون الاخرى ، التي كثيراً ما امتزجت بالخيالات والاوهام . وفي ذلك يقول المؤرخ الكبير المسيو « برتيلو » Berthelot في كتابه « الكيمياء في القرون الوسطى » الذي طبع بباريس سنة ١٨٩٣ « إن المادة العربية في الكيمياء تنقسم الى قسمين : الاول مترجم او مأخوذ عن الكتاب اليونانيين الذين كتبوا في مدرسة الاسكندرية : والثاني يمثل مدرسة عربية مستقلة المباحث عن الاولى »

وبينما كانت مدرسة الاسكندرية فارقة في المباحث الطبية ، كانت كنائس آسيا وديرتها ومدارسها ، ممعنة في المباحث المنطقية والفلسفة التأملية

كان من الطبيعي ان يأخذ اليعاقبة عن تعليقات «يوحنا فيلوبونس» في تدريس علم المنطق ، اعلاقتهم بمصر . غير انهم لم يقفوا ذلك . بل رجعوا والنساطرة الى مختصر «فرفوريوس الصوري» في المنطق المسمى « ايساغوجي» وأخذوه كمدخل الى علم المنطق . ولا يزال هذا الكتاب يقرأ في الازهر حتى اليوم كمدخل لذلك العلم

اما في الميتافيزيقا — (ما وراء الطبيعة) — والبسيكولوجيا — (علم النفس) — وتطبيقهما على اللاهوت ، او في الاستعانة بهما على فهم المسائل اللاهوتية ، فقد كان ميل اليعاقبة الى الافلاطونية الجديدة والباطنية اقوى من ميل النساطرة ، كما كانت حياتهم وتعاليمهم اكثر استكانة في الأديرة ، في حين انك تجد ان النساطرة قد نزعوا الى الطريقة القديمة في تأسيس المدارس ولو ان ذلك لم يحل دون اتخاذهم أديرة ، كانت متبعاً للعلم وللفلسفة . واذا انت على ذلك اذا بك تجد ان نظام المدارس قد انقلب في آخر الامر الى نظام ازهية

كانت مدرسة نصيبين اقدم مدارس النساطرة واعظمها جميعاً . غير ان « مار أبا » Mar Abba وهو زرادشتي تنصّر وسيم اسقفاً لسطوريّا ، اسس مدرسة في سلوقية على لظام مدرسة نصيبين

وبعد ذلك بقليل اسس « كسرى انوشروان » ملك الفرس المشهور مدرسة زرادشتية في « جنديسابور » من اعمال « خوزستان » . حكم انشروان بين سنة ٥٣١ — ٥٧٨ من الميلاد . وكان قد تأثر بتعاليم اليونان ، حينما كان يحارب سورية البيزنطية ، فاضاف جمعاً من الفلاسفة اليونانيين والفلاسفة العارفين بالفلسفة اليونانية ، عندما اغلق الامبراطور « يوستنيانوس » الهياكل والمدارس في آثينا

وكان الذين وفدوا على انوشروان من الفلاسفة سبعة ، فاكرم وفادتهم واضافهم وامرهم بتأليف كتب الفلسفة او نقلها الى الفارسية ، فنقلوا المنطق والطب والفوا فيها كتباً فطالعها هو ورغب الناس فيها (راجع الفهرست ص ٢٤٢) على ان في رواية صاحب الفهرست شكاً كبيراً . اذ كيف ينقل الفلاسفة اليونان الوثنيون الذين لا احتكاك لهم بالفارسية ، وعلى الاخص الفهلوية ، كتب المنطق والطب الى لغة فارس ، في حين ان الراجح ان لا يكون لهم المام الا بلغتهم اليونانية القديمة ؟ يبقى ذلك الشك ما لم يثبت ان الفلاسفة اليونان كان لهم سابقة في دراسة الفارسية في عصر متقدم على عصر انوشروان

ويقول بعض المؤلفين أن أنو شروان عقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون من بعده بقرنين ونيف حتى « خيل للاغريق الذين جالسوهُ انهُ من تلامذة افلاطون » . اما عقد أنو شروان لمجالس العلم فذلك محتمل ، لان اخباره مع وفود العرب وعقد المجالس لهم معروفة مشهور امرها بين الادباء . اما بقية الرواية فأمر مشكوك فيه ، لان عهد انو شروان بفلسفة اليونان كان قصيراً الى حد لا يعقل ان يبرّز فيه أنوشروان في الفلسفة الى هذا المدى القصي . ومما يجعل الرواية أدخل في الشك ان افلاطون علّم في القرن الرابع قبل الميلاد ولم يعقد انو شروان مجالس الفلسفة الا في القرن السادس بعد الميلاد ، فكيف يخيل الى الفلاسفة اليونان الذي حضروا مجلسهُ انهُ تلميذ من تلاميذ افلاطون ، في حين ان تلاميذ افلاطون كان قد اكلهم البلى من قبل ذلك بالف عام ؟

ومما يدلك على اهتمام أنوشروان باولئك السبعة الذين وفدوا عليهِ من فلاسفة

اليونان، انهُ وضع في المعاهدة التي عقدها والامبراطورية البيزنطية، نصاً خاصاً بهم ضمن لهم به حريتهم المدنية والدينية، وعدم الاستبداد بهم فيما لو أرادوا العودة الى وطنهم

كان هؤلاء الفيلاسفة من الآخذين بتعاليم « الافلاطونية الجديدة » . على أن اثرهم في الحياة الفارسية غير معروف بالضبط . فالى اي حد تذهب هذه التعاليم في التأثير على صور التصوف التي ظهرت في فارس فيما بعد ؟ ذلك ما اخذت المباحث الجديدة تجلو عنهُ الاستار فقد كتب الاستاذ « نكلسن » في كتابهِ « اشعار منتخبة من الديوان » طبع كمبردج (١٨٩٨) شيئاً يكشف عن تلك الآصرة التي تربط بين « الافلاطونية الجديدة » والباطنية كما اخذ بها في فارس

وعقب عليهِ الاستاذ « ديلاس اوليري » فدبج في مؤلفهِ الذي طبع في نيويورك ١٩٢٢ عن الفكر العربي فصلاً عن الصوفية هو الفصل السابع من ذلك الكتاب (من ١٨١ — ٢٠٧) اوضح فيهِ اواصر العلاقة بين الباطنية المبثوثة في تعاليم « الافلاطونية الجديدة » وبين الباطنية الفارسية في العصر الوثني ، وما كان من أثرها فيما بعد على صور التصوف التي اختصت بها فارس وأبناء العرب بعد الاسلام

وكان اساس التعليم في مدرسة « جنديسابور » غير مقصور على المؤلفات اليونانية والسريانية ، بل اضيف الى ذلك تعاليم من فلسفة الهند وآدابها وعلومها ، ترجمت الى اللغة الفهلوية وهي اللغة الفارسية القديمة . وهنالك تمت علوم الطب حين تخلصت من جو الضغط والاستبداد الذي حوطتهُ بها التعاليم اللاهوتية . ومن غريب الامر ان يكون من اشهر الذين علموا الطب في توبهِ الجنديسابوري الحديث فئة من اشهر النساطرة المسيحيين

ومن الذين اشتهروا من العرب قبل الاسلام في مدرسة « جنديسابور » — « الحارث بن كلدة » الذي اشتهر من بعد كطبيب ، وابنهُ « النضر » الذي ذكرهُ من بعدُ الرئيس بن سينا كاحد اعداء سيدنا محمد عليهِ الصلاة والسلام ، وكان من بين الذين هُزموا في وقعة « بدر » وقتلهُ علي بن أبي طالب. ومن ذكر الرازي من اعلام تلك المدرسة من ابناء الهند شركه Sharak « وقلهومن » Qolhoman ومنهم هندي يقال لهُ شانك كتب رسالة في السموم ترجمها من بعدُ احد التراجمة ليحيى بن خالد البرمكي الى الفارسية ، ثم ترجمت الى العربية للخليفة المأمون

وترجمت في عصر هرون الرشيد بواسطة طبيبهِ الخاص بضعة كتب عن

الفكر يتية الى العربية في علم الطب ، حتى انهُ من المتعذر ان تعرف اصل التعاليم الشائعة في الطب العربي إن كانت مستمدة من اليونان أم من الهند أم هي مبتكرة الا بعد طول المزاولة والصبر على تفهم حقيقتها وطبيعتها ومقارنتها بتنازع الآراء المستمدة من كل من تلك النواحي

وفضلاً عن المدرستين المسيحية والزرادشتية ، فقد وجدت مدرسة وثنية في « حرّان » ولا يعلم كيف نشأت وكيف تطورت ! ولا من وضعها وأقام اسسها ؟ وكانت « حران » مركزاً للتأثير اليوناني منذ عصر الاسكندر المقدوني الاكبر ، وظلت موئلاً لتعاليم الديانة اليونانية القديمة ، بعد ان انقلب العالم اليوناني الوثني الى عالم نصراني . والظاهر أن « حران » قد ورثت كثيراً من تعاليم الديانة البابلية القديمة التي كانت قد انتعشت في القرون الاولى من انتشار الديانة المسيحية ، الاّ أن صور تلك الديانة القديمة قد ذهبت بها تطورات الديانة الوثنية اليونانية كما فهمتها « الافلاطونية الجديدة » وكما وضعها زعماء تلك الفلسفة في مدينة الاسكندرية . ولا مشاحة في ان حالات الفكر في « حران » تمثل آخر أدوار الوثنية اليونانية والافلاطونية الجديدة كما وصفها «فرفريوس الصوري» حيث ظلت عائشتين ممدتين بكل اسباب الحياة ، عيشة بعيدة عن معترك العالم الخارج عن حيّزها

على الرغم من انتشار المدارس التي علت على النسق اليوناني واذاعت مواد الثقافة اليونانية فقد اقترنت التعاليم بكثير من المؤثرات الأخرى التي لا يمكن المؤرخ في تاريخ الفكر ان يغفل امرها . فان الجنود الفارسية عند ما رجعت من غزو سورية نقلت معها كثيراً من آثار الفكر اليوناني وطائفة من مظاهر الزفاهية اليونانية . وكذلك طبعت نفوس ابناء فارس بعد تلك الغزوة بطابع من الاعجاب بالفن اليوناني وهندسة البناء اليونانية . وكان المهندسون والبناؤون اليونان الذين أسروا في الحرب يعتبرون أثمن ما رجع به الجيش الغازي من المغانم ، حتى أن بلاد فارس بدأت بعد تلك الغزوة تدخل نسق البناء اليوناني فيما تشيد من المباني

إذن فتاريخ القرون التي تقدمت انتشار الاسلام تدل على ذيوع قسط عظيم من التأثير اليوناني في كثير من فروع الفن والعلم والفلسفة والهندسة والبناء ، وفي زخارف الحياة ذاتها . ومن قبل ذلك منذ عهد الاسكندر المقدوني ، كان غربي آسيا لا يتنفس الاّ في جو مفعم بآثار الفكر اليوناني

برقين اسماعيل مظهر